مواجهة العولمة

فى زمن العولمة كما يريد الكثيرون أن يسمون العصر الذى نعيشه فإن المقولة الرئيسية هى أننا نعيش فى قرية كبيرة تختفى فيها الحدود بين الدول بمعنى سقوط الدولة وزوال القومية - وسيادة ثقافة واحدة ترفدها مفاهيم تتمحور فى النهاية حول اقتصاد السوق، وإلغاء الجمارك، وكل ذلك يتبلور من خلال وثيقة واحدة تشكلها اتفاقية التجارة العالمية «الجات» ولكن تأتى هذه المفاهيم الجديدة، مع استمرار سوء توزيع الثروة بين الشمال والجنوب. وبين الفقراء والأغنياء فى البلد الواحد، وكأن شيئًا لم يتغير، فحال البؤس فى كل بقاع العالم يظل قبل اتفاقية الجات كما هو بعد الاتفاقية، بل أن الأمر قد يزداد سوءًا فالكفة سوف تميل لصالح الأغنياء والقوى الكبرى.. قد تضيع تمامًا معايير العدالة الاجتماعية، وتسقط قواعد الاشتراكية، ويقوى الاتجاه اليمينى ويسيطر، والأغبياء والبسطاء يطالبوننا بأن نتجاهل كل اتجاهات الشر لأننا فى عصر العولمة - نتبع الأوامر التى تجىء لنا من ناحية الغرب ونسلم لهم بقيادتنا ونرضخ لإملاء الأفكار والمفاهيم الجديدة. نسير وراءهم دون أن نناقش وحتى أن نفهم ما العولمة. ومن هم مروجوها، وما المقصود منها. وما الدور الجديد المرسوم لنا؟ لا أحد يريد أن يشرح لنا، المهم أن نطيع لمقولات الغرب الجديدة.. وإذا تكلم هنتجتون، فكلمته حق يجب أن نستوعبها، وإذا كتب فوكوياما، فما يقول هى مقولات العالم الجديد التى يجب أن نعيها جيدًا ونعمل على هديها. نعم إنها الحقيقة الواحدة التى يجب أن نتذكرها أنها انتصار ثقافة الغرب فى مقابل هزيمة الشرق وكل ثقافات العالم القديمة وخاصة الصينية والإسلامية.

ومهدت هذه المقولات لحرب شنها الغرب علينا دون أن نكون مستعدين لها. ولم نحسب أننا سندخلها فى وقت قريب.. وانهزمنا.. وراحت ثقافة الاستسلام والرضوخ تشكل واقعنا المرير، ثقافة ينشرها الطابور الخامس من المثقفين العرب المسيطرين على الساحة الثقافية بسند من الأنظمة العربية الحاكمة.

ونحن كنا منهزمين من قبل أن تظهر أولى بوادر العولمة والنظام العالمى الجديد. ظهرت أولى مقالات النظام العالمى الجديد مع اجتماعات بوش وجورباتشوف قبيل حرب الخليج الثانية لتحرير الكويت.

وتكلم بوش كثيرًا عن الشرعية الدولية وهى تتنصر مع قرارات هيئة الأمم المتحدة التى أصدرتها المنظمة ضد العراق ومطالبتها بالانسحاب الفورى من الكويت وإلا يطبق عليها قرارات الأمم المتحدة التى تنص على استخدام القوة.

ومع النغمة الجديدة عن الشرعية الدولية يقوم النظام العالمى الجديد، ولكن تتأكد مع النظام العالمى الجديد ازدواجية المعايير - وتحاول أمريكا الهيمنة على الأمم المتحدة وأن تظهر المنظمة وكأنها تركز اهتماماتها بالمحافظة على حقوق الإنسان والحريات ويتزايد الدور مظهريًا مع بزوغ مفهوم النظام الدولى الجديد.

ولعل من الأمثلة الأكثر دلالة فى هذا الخصوص نجدها فى حالتى التدخل الدولى ضد العراق لحماية الأكراد فى شمال العراق، والشيعة فى جنوبه، وذلك فى أعقاب انتهاء حرب تحرير الكويت فى ٢٦ فبراير ١٩٩١، والتدخل الدولى فى الصومال منذ أوائل عام ١٩٩٣ والذى تم تحت شعار «إعادة الأمل» وإنقاذ الشعب الصومالى من خطر المجاعات التى أخذت تفتك به كنتيجة لانهيار الدولة، وعجزها عن القيام بمجمل الوظائف المنوطة بها.

ثم فى يوغسلافيا نجد مشكلة كوسوفو بعد أن تمادت القوات

اليوغسلافية فى انتهاك حقوق الألبان، وكانت قد ارتكبت من قبل من الفظائع الكثير ضد المسلمين فى البوسنة والهرسك.

ولو أن ذلك كله لا يدل على نظام جديد يتبلور من أجل المحافظة على حقوق الإنسان وحرية الشعوب فلقد كانت القوة المهيمنة التى وجهته لمصلحتها هى الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن سيطرت على القرار فى مجلس الأمن ولم يعد هناك قوة تعارضها، أو تقف فى طريقها.

وقد تبدو هذه مرحلة انتقالية وصلت فيها السيطرة الأمريكية إلى مداها. وكبح جماحها بعد ذلك وهى تحاول أن تجبر الأمم المتحدة ممثلة بمجلس الأمن على اتخاذ قرار بغزو العراق بحجة امتلاكه لأسلحة الدمار الشامل، ووقفت فرنسا وألمانيا وروسيا ضد اتخاذ قرار الحرب، فلم تعد أمريكا بقادرة على التصرف تحت مظلة الشرعية الدولية، وراحت تغزو العراق دون سند شرعى من هيئة الأمم المتحدة.

ولكن أمريكا بالرغم من فشلها فى إقناع الأمم المتحدة باتخاذ قرار الحرب ضد العراق مازالت تجر وراءها العالم فيما تعلنه عن حربها ضد الإرهاب، وهى ترعب حكام العالم الثالث تحت شعار «من ليس معى فهو ضدى». وتحت طائلة العقاب الذى يخشاه الحكام نجدهم مندفعين للوقوف فى صف أمريكا خاضعين خانعين يحاربون حتى أنفسهم خشية البطش الأمريكى، فأمريكا أظهرت لهم العين الحمرة فى أفغانستان والعراق بعد أحداث ١١ سبتمبر التى يظن البعض أنها نذيرة الشؤم للعرب والمسلمين، فى حين أنها عجلت بالمعركة التى كانت ستقع فى يوم من الأيام بين أولئك وأمريكا.

لم يكن هناك مفر من أن تقع أحداث ١١ سبتمبر بالولايات المتحدة الأمريكية، فقد تطورت علاقات معقدة بين الحكام العرب وبعض جماعات التمرد فى البلاد العربية، من أهم هذه الجماعات تنظيم القاعدة وكانت بداية تأسيسه حينما انضم الراعى الأول له أسامة بن لادن إلى

صفوف المقاومة للغزو السوفيتى لأفغانستان، وكان فى تلك الأيام ربيب أمريكا الأول، احتضنته ومدته بالسلاح والمال ليحارب معركتها ضد السوفييت، وبعد هزيمة الاتحاد السوفيتى فى أفغانستان وخروجه منها، تحول ابن لادن ليواجه الولايات المتحدة فى معركة طويلة ومريرة.

وقد أفلح تنظيم القاعدة فى تجنيد عناصر كثيرة من المسلمين فى شتى بقاع الأرض، وفى مقدمتهم دون منازع العناصر العربية.

وكنت على ثقة ومنذ أمد طويل أن معركة الأمة العربية مع الولايات المتحدة آتية لا ريب فيها، فبعد سقوط الاتحاد السوفيتى الذى سمح بسيطرة القطب الواحد على العالم، انفتحت شهية الولايات المتحدة لتحقيق حلمها بإقامة إمبراطوريتها التى كانت تحلم بها منذ سقوط الاستعمار التقليدى واهتزاز قبضته على العالم. وكنت أفكر كثيرًا فى كتابة كتاب يعلن على الملأ - اقتراب وقوع المعركة. فكل الدلائل كانت تشير إلى أن أمريكا تدفع بكل قواها فى اتجاه هذه المعركة.

كانت كل الأحداث وخاصة بعد عملية غزو العراق للكويت وتكون التحالف الدولى لتحرير الكويت تشير إلى أن الأمة العربية وقعت فى فخ نصبته لها أمريكا، وأصبحت كالفأر فى المصيدة.. تتلذذ أمريكا بمداعبته والسخرية منه حتى تنهار قواه ويصبح جثة هامدة، فتلقيه بعيدًا وتأخذ هى فى التمتع بكل ما كان يتمتع به الفأر أو الفئران المذعورة، ولم يكن ما يتمتع به الفأر - بالرغم من كونه فأرًا - فتاتًا، بل كان العرب الفئران يملكون أعلى احتياطى للنفط فى العالم - وهو المحرك الرئيسى لدولاب الصناعة الأمريكية ناهيك أن الدول العربية الغنية سوق رائجة لصادرات الولايات المتحدة.

لم تكن الحالة الاقتصادية هى القوة الفاعلة فى العلاقات العربية الأمريكية، بل إنها التبعية، ومن ثَمَّ الضياع الذى ينتظر الأمة العربية، بعد أن أصبحت إسرائيل أقوى قوة عسكرية فى المنطقة، وهى فى

سبيلها إلى السيطرة على اقتصاديات المنطقة واستغلالها لمصلحتها ولمصلحة القوى الاستعمارية الكبرى التى زرعتها فى المنطقة.

كانت المعركة آتية لا ريب فيها، ولم تفعل أحداث ١١ سبتمبر إلا التعجيل بوقوعها.

لم يحدث فى التاريخ أن يحاصر العالم تحت ضغط أمريكا دولة لمدة عشر سنوات، بل الأنكى من ذلك أن يشارك الإخوة الأشقاء فى محاصرة شعب العراق، أذلت ألمانيا العالم الغربى كله. واليابان حطمت الأسطول الأمريكى فى ميناء هاربر، ومع ذلك تقوم الولايات المتحدة بإعلان مشروع مارشال تساعد به الدول الأوربية بما فيها ألمانيا، وتتعاون مع اليابان لتصبح الدولتان ألمانيا واليابان أكبر قوتين اقتصاديتين فى العالم.

كانت أمريكا فى كل هذا تعمل لمصلحة إسرائيل التى كانت تخشى قوة العراق كما تخشى قوة إيران - وسعت أمريكا قبل كل هذا لتحييد الموقف المصرى بالنسبة للقضايا العربية وراحت مصر تسير فى ركابها. خربت أمريكا عليها كل حياتها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وجعلتها ألعوبة فى يدها وأفقدتها مكانتها ودورها فى قيادة الأمة العربية، حتى سارت فى النهاية تساوى صفرًا كما ظهر من التصويت للحصول على استقبال أولمبياد ٢٠١٠.

فى ٢ أغسطس عام ١٩٩٠ اجتاحت الجيوش العراقية الكويت محدثة بذلك تغييرًا عنيفًا فى توازن قوى النفط فى المنطقة مهددة وصول الإمدادات المطلوبة لأمريكا من النفط.

وفى نوفمبر ١٩٩٠ وصلت قوات بلغ عددها ٤٠٠ ألف من التحالف الدولى الذى كونه جورج بوش إلى المنطقة - اتخذت غالبيتها مواقعها فى السعودية مقر المدينتين المقدستين مكة والمدينة، وتسبب وصول تلك القوات إلى السعودية فى إثارة أحد أغنياء السعودية هو أسامة بن لادن وهو الذى اكتسب شهرة فائقة وهو يحارب قوات الغزو السوفيتى فى أفغانستان.

هددت أمريكا فى ٩ يناير العراق بالتدمير إذا لم ينسحب من الكويت. وبعد ذلك بثلاثة أيام أجاز الكونجرس استخدام القوة ضد العراق، وعقب خمسة أيام بدأ التحالف الدولى هجمة جوية سريعة ضد القوات العراقية واستمر القصف العنيف ٤٢ يومًا بمعدل ٢٠٠ هجمة يوميًا ضد الجيش العراقى وقواته الجوية وبعد شهر من تلك الهجمة العقابية، حث الرئيس بوش الشعب العراقى على الثورة ضد صدام إلا أن الثورة الشعبية لم تحدث - لماذا؟

بدأ الهجوم الأرضى ضد الجيش العراقى فى ٢٣ فبراير وتداعت القوات العراقية بشكل شبه فورى بعد أن حطمتها الهجمات الجوية وفى خلال أيام ثلاثة أعلنت العراق انسحابها من الكويت، فى ٢٨ فبراير، اتفقت العراق والولايات المتحدة على وقف إطلاق النار وانتهت حرب الخليج الثانية.

بيد أن القتال لم ينته، ففى ٢ مارس ١٩٩١ قتلت كتائب المشاة الأمريكية المزودة بالآليات الآلاف من الجنود العراقيين - وفى هذه الأثناء استمر صدام فى السلطة، فقد نجح فى إحباط تحريض الولايات المتحدة على الثورة والعصيان. وساعدته فى ذلك الولايات المتحدة نفسها، فلقد سمحت القوات الأمريكية للطائرات الشراعية العراقية بالطيران بعد خطوط القوات الأمريكية لقمع الشيعة والأكراد الثائرين فى الجنوب والشمال، ورفض نورمان شوارتسكوف قائد قوات التحالف لأفراد وحدات الحرس الجمهورى - الذين ثاروا على صدام - بالوصول إلى مستودعات أسلحتهم، وسحق صدام المتمردين بضراوة ودعم ذلك سلطته.

كانت الولايات المتحدة قد شنت الحرب لإخراج صدام من الكويت إلا أنها عملت على بقائه فى السلطة وأعلن صدام بعد الحرب مباشرة الانتصار على الولايات المتحدة.

وفى أعقاب الحرب استمر العمل بالعقوبات الاقتصادية على العراق، وأدى هذا إلى وفاة أكثر من مليون عراقى مدنى كنتيجة مباشرة للحرمان الذى تسببت فيه تلك العقوبات، وفى أبريل ١٩٩١ أصدر مجلس الأمن قراره رقم ٦٨٧ بتكوين فرق التفتيش على أسلحة الدمار الشامل تحت اسم اليونسكوم. وفى عام ١٩٩٢ سقط بوش فى انتخابات الرئاسة وترك الكرسى لكلينتون الذى واصل سياسة الاحتواء للعراق. ومنذ انتهاء حرب الخليج وحتى بداية غزو العراق، أصبحت هجمات الطيران الحربى الأمريكى على قواعد الدفاع الجوى العراقى ممارسة روتينية تحدث شبه يومية، وقامت فرق التفتيش لتحديد برامج أسلحة العراق النووية والكيماوية والبيولوجية ودمرت كل متعلقاتها ومشتقاتها حتى عام ١٩٩٨. عندما مهد المأزق الذى اصطنعه ريتشارد بتلر رئيس فريق التفتيش بإيماز من الولايات المتحدة من سحب الفريق من العراق.

وكان القرار٦٨٧ لا يعطى الولايات المتحدة تفويضًا مطلقًا لشن الحرب على العراق، وإن هذا الأمر يتعين على مجلس الأمن دراسته، وظل مجلس الأمن لا يعطى أية إشارة لأمريكا على أنه يوافق على وجهة نظرها، وأن الظروف الراهنة تكفى بإعلان الحرب، وتدفع الولايات المتحدة بشىء تسميه «الحق الاستباقى فى الدفاع عن النفس». ويكون لأمريكا الحق فى ضربة استباقية إذا كانت العراق مازالت فعلاً حتى هذا الحين يمتلك أسلحة دمار شامل.

ولكن أسلحة الدمار الشامل فى العراق قد تم تدميرها حتى عام ١٩٩٨م بنسبة تتراوح بين ٩٠، ٩٥٪، يشمل هذا جميع المصانع التى تنتج الأسلحة الكيميائية والبيولوجية والصواريخ البلاستية طويلة المدى وأيضًا تجهيزات تلك المصانع المرتبطة بالإنتاج والغالبية العظمى لمنتجات تلك المصانع.

لقد اخترقت «السى آى إيه» اليونسكوم، راحت تجمع معلومات لا

تتعلق بالتفويض، وكان بتلر رئيس فريق التفتيش يعمل لحساب «السى آى إيه» والمخابرات الإسرائيلية. ويشعر العراقيون أن المفتشين كانوا يسعون إلى اختراق مناطق تتعلق بسيادة العراق وأمنه القومى وكرامته بأسلوب غير لائق وأرادوا توضيح ذلك، وأتى ريتشارد بتلر ببرنامج شديد العدوانية وأعلن العراقيون أنهم سيوقفون التعاون معه. فهو لم يكن سوى أداة طيعة تنفذ رغبات أمريكا، وأدى ذلك إلى أن يصدر مبكرًا أوامره للمفتشين بمغادرة العراق.

وبعد أحداث ١١ سبتمبر اتخذت أمريكا قرارها بمحاربة الإرهاب، فكانت الحرب ضد ابن لادن وطالبان فى أفغانستان - ثم قرار الحرب ضد العراق.

وتدعى أمريكا بأنها جاءت إلى العراق لنشر الديمقراطية، ومن السخف أن يتحدث دونالد رمسفيلد وآخرون عن الديمقراطية فى العراق - ويظل يردد هذه النغمة بعد ما تكشف عن جرائم ارتكبتها القوات الأمريكية ضد المعتقلين بسجن أبو غريب.

يقوم النموذج الديمقراطى الغربى على حكم الأغلبية إلا أن ٦٠٪ من العراقيين مسلمون شيعة يرتبطون مذهبيًا بإيران، وبالطبع فإن إيران مرتع لتوليد الأصوليين الإسلاميين المعادين لأمريكا. وطبقًا لما هو معروف يملك العراق ثانى أكبر احتياطى نفط فى العالم. وإن فكرة ديمقراطية يستولى الشيعة بموجبها على السلطة فى العراق يعنى أن ترتبط تلك الدولتان مذهبيًا. وهذا أمر لا يود الكثيرون حدوثه لا فى داخل الولايات المتحدة، ولا فى المنطقة وبناء عليه فإن الأمريكان لا يريدون حقيقة ديمقراطية فى العراق لأنهم ببساطة لا يريدون صعود الشيعة إلى السلطة.

والمجموعة التى تلى الشيعة فى العدد هى الأكراد الذين يشكلون ٢٣٪ من مجموع السكان، وحقيقة الأمر أن الولايات المتحدة لا تريد استقلال

الأكراد، مثلما لا يريده الأتراك. وقد ظل العراق يشن حربًا دموية طويلة لمنع قيام دولة الكردستان المستقلة، وليس من مصلحة الولايات المتحدة منح ٢٣٪ من سكان العراق السلطة بأسلوب ديمقراطى.

يبقى السُنَّة ونسبتهم ١٧٪ فى العراق، ويتبع صدام حسين المذهب السنى، وقد سيطرت القبائل السنية دومًا على الحياة السياسية، وعلى الجيش والطبقة الحاكمة فى العراق، إلا أن أمريكا لا تتحدث أيضًا عن الديمقراطية بين السكان السنيين.

فى نهاية المطاف فهذا كله عبثى، وليس بالإمكان فرض ديمقراطية من الخارج، فعلى العراق أن يحدث نقلة داخلية، وهذا يستغرق عقودًا طويلة.

وكان السبيل الوحيد الذى يمكن أن تولد به الديمقراطية هو رفع العقوبات الاقتصادية والسماح للعراق بإعادة بناء نفسه. إن تنمية طبقة وسطى حية قابلة للتطور تتخطى كل الحدود الدينية والأثنية والقبلية هو الشىء الوحيد الذى يمكن به أن تولد الديمقراطية.

ولقد أظهر الغزو الأمريكى للعراق بوضوح هذه التركيبة الغريبة للمجتمع العراقى.

ومن على بعد كنا نتصور أن العراق بلد عربى يؤمن إيمانًا عميقًا بالقومية العربية وللأسف ظهر لنا أن صدام حسين كان يروض وحوشًا كل منهم يود أن ينقض على الحكم، الشيعة من خلال نظرة ضيقة جدًا قد تكون عقائدية وقد لا تكون أى شىء، والأكراد وهم يريدون الاستقلال بمنطقتهم وتكوين كردستان الكبرى.

ويتكرر هذا الموقف المؤلم فى السودان، بينما يتنازع أهل الجنوب وأهل الشمال على السلطة، وتبدو بوادر الانفصال ظاهرة من خلال حركة التمرد فى الجنوب، وفى النهاية يخسر الجانبان والرابح الوحيد هو القوى المهيمنة التى تسعى للسيطرة على العالم بعد أن تفقد شعوبه

روح المقاومة من خلال إنهاك قواها وتدمير معنوياتها ومقدراتها فى حروب داخلية.. لا نهاية لها .. نعم تنهار روح المقاومة.

لقد سقط الاتحاد السوفيتى، بعد أن لعبت الولايات المتحدة دورًا كبيرًا فى تفكيكه، تعاون معها يلتسين وشيفارنادزا ،كليهما أصبحا الأداة الطولى للهيمنة الأمريكية بعد أن توليا الحكم فى روسيا وجورجيا، وتصبح السياسة فى الدولتين خاضعة وتابعة للسياسة الأمريكية - وتنعدم روح المقاومة للنفوذ الأمريكى.

وفى بداية الأمر، ظننا أن روح المقاومة قد غابت فى العراق، فالأكراد خضعوا للهيمنة الأمريكية وساعدوها فى غزو العراق بغية مساعدتهم فى نيل الاستقلال وتكوين دولتهم القومية، وخضع الشيعة أيضًا وهادنوا الولايات المتحدة فى محاولة شبه يائسة للوصول إلى الحكم. وظلت المقاومة تنحصر فى فلول حزب البعث والأحزاب القومية الأخرى وبعض الجماعات الدينية التى تقوم بمهمتها فى إعلاء كلمة الدين الإسلامى دون البحث عن السلطة أو الجاه - وهنا نشير إلى مبدأ أخلاقى يطول شرحه.

وفجأة ينضم الشاب الثائر مقتضى الصدر إلى مقاومة الاحتلال، وتنقلب الأوضاع رأسًا على عقب فى مصلحة المقاومة العراقية.

ونتساءل هل المقاومة إرهاب؟ يتهم مجلس الحكم فى العراق المقاومة العراقية بالإرهاب، وكما سبق للحكام العرب أن رضخوا لأوامر أمريكا واتهموا المقاومة الاستشهادية الفلسطينية بأنها جماعات إرهابية مع أن مستقبل الأمة العربية كله يتوقف على مدى قوة هذه الجماعات الإرهابية وصمودها ثم نجاحها فى كسر شوكة الهيمنة الأجنبية سواء فى العراق أو فلسطين أو أى أرض عربية أخرى يحتلها المعتدى الأثيم.

ولعلنا نمد هذه المناقشة إلى الوضع فى مصر... وهو وضع لا يختلف كثيرًا عن الوضع فى أى بلد عربى سواء فى العراق أو السودان، وكما

يحدث فى البلدين يحدث فى مصر أن تستولى فئة معينة على الحكم تتوارث الحكم منذ قيام ثورة يوليو، لا تفسح مجالاً لفئات أخرى لكى تشارك فى الحكم واتخاذ القرار، وهى تمنع أى فئة أو جماعة معارضة فى التمتع بحقها فى الممارسة السياسية الحقة التى يسمح بها فى المجتمع الديمقراطى.

المشكلة عامة فى جميع الأقطار العربية، والسبب الرئيسى لوجودها هو عدم الوعى بالذات، نحن نعيش فى أشلاء مجتمعات، الفرد لا يدرك ذاته. وهو لا يعلم وظيفته أو دوره فى المجتمع، وأن عليه أن يطور نفسه باستمرار، وهو لا يفعل ذلك، لأنه لا يعى ذاته ولا يشعر بالآخر. فالآخر ذات أخرى يقوى الفرد بالتفاعل والتكامل معها، كل عنصر فى المجتمع المصرى يعيش بمفرده، يتعامل مع الآخرين فى أضيق الحدود، تعاملاً سطحيًا غير فعال.

هنا تنكسر روح المقاومة، وعلى مستوى أى جهاز أو مؤسسة، لا يستطيع الفرد أن يذهب وحده إلى الرئيس ليقول له أنت أخطأت، قد يذهب ويقول ذلك لمنفعة شخصية، ولكن قوله هذا يذهب أدراج الرياح، فإما أن يعصف به الرئيس ويعاقبه أشد العقاب وإما أن يتجاهل ما يقول.

وتصبح مقاومة الفرد عبثًا لا تؤدى إلى أى نتيجة بل على العكس ربما تكسب صاحبها حالة من الإحباط قد تنتهى به إلى العزلة والسلبية واللامبالاة والانكسار المعنوى والروحى - وهذا أخطر ما فى الأمر.

إن قوى التقليد فى المجتمعات المتخلفة أكبر بكثير من قوى التقدم، ولا يمكن أن تنحسر هذه القوى دون مقاومة، تتسع مساحتها حتى تشمل عامة الشعب ولا تنحصر فى فئة من المفكرين النخب قد يكونوا هم السبب الرئيسى فى تدعيم التخلف ومحاربة التطوير والتقدم.

وقد لا نقاوم لأننا متسامحون، نتسامح مع الآخر مهما كانت نواياه

السيئة. وهناك أمور لا يصح التسامح فيها، المساس بكرامة الفرد، وكرامة الأمة وأى إهانة للفرد مرفرضة على جميع المستويات، والناس سواسية كأسنان المشط، لا فرق بين عجمى وعربى إلا بالتقوى وإذا لم يكن الآخر نقيًا وجبت مقاومته.

والأولى بالمقاومة هو الحاكم الذى لا يصون كرامة شعبه ويحفظ حقوقه المدنية وينتقص من حريته.

نقاوم ما ومن ولماذا؟ لا يفيد فى صراعنا مع الغرب مثلاً أن نجهل طبيعة العلاقة التى تربطنا به، من حيث الهيمنة والاستقطاب والتبعية التى تعمل وبدون شك على تفكيك القطاعات الداخلية فى المجتمعات الطرفية.

عادات سيئة تكبل تحركنا إلى الأمام، فساد داخلى، قوم ظالمون، ومحاولات الهيمنة من خارج الحدود. كل ذلك يدعو إلى فهم أنفسنا ومعرفة الآخر.

لا يعنى اختلافنا مع الآخر أننا على عدم اتفاق وفى نزاع مستمر معه. وفى وجود الخلافات ندعو إلى الحوار - نتسامح فى حدود علاقات متكافئة، وصداقة على نفس المستوى. نتقبله ونتسامح معه ولكن لا نسمح لمحاولة السيطرة والهيمنة وإذلالنا • وعلى الأخص محاولة مسخ هويتنا - هنا نقاوم الحرب المعلنة.

أنا أقاوم فأنا موجود، وخلاف ذلك لا أحد سوف يسمح لك بالوجود، وسوف تتعرض للسحق والانهيار إذا فقدت روح المقاومة فأنت غائب عن الساحة ولن يعمل لك أحد أى حساب.

ونقوم المقاومة فى الأساس على العلم، فكيف تقاوم وأنت لا تعلم ماذا تقاوم وكيف تقاوم؟

المواقف السلبية أمام الحالة المتردية لن تفيد، لابد من المواجهة - وسبيلنا إلى المقاومة معرفة الأسباب للتردى والسقوط.

إذا استأجرت من مالك شقة، ثم باع المنزل الذى تقع فيه الشقة إلى

آخر، وأراد هذا الآخر أن ينتزع منى الشقة بحجة أنه لا يعرفنى، وأنه لم يؤجر لى الشقة، علىَّ أن أعرف كيف أقاوم الظلم الذى وقع علىَّ، وأسترجع حقى الذى يود الآخر سلبه، قد يشير علىَّ أحدهم بالذهاب إلى الشرطة وينصحنى آخر برفع الأمر للقضاء.

ولكنى أعتمد على ذكائى الخاص وتشغيل العقل، وإذ بى أقرر أن أذهب لاقتحام الشقة والمكوث فيها وأترك لصاحب العقار أن يذهب هو لإثبات حقه فى الشقة.

فى الحالة الأخيرة. فإنى أعى بذاتى وقدرتى، هذا الوعى الذى منحنى القوة لأقاوم بمفردى دون الاعتماد على الآخرين وهذا ما هو مطلوب فى المثقف الواعى، لا ينتظر العون من أحد - ولا يتطلع إلى رؤى الآخرين، حتى ينطلق إلى رؤاه الخاصة به. واقتحام آفاق المجهول. ليكتشف طريقًا آخر أفضل للحياة. قد يكون شاقًا وخطرًا ولكن بعد اجتيازه وأنت محصن بأسلحة الاقتحام سوف تشعر سعادة أكبر وراحة أعم.

ولم يكن فى مخيلتى، ولا فى تفكيرى وأنا أنوى الحصول على حقى وانتزاع شقتى التى أراد الآخر اغتصابها أى نظرة إلى التقليد أو الدين، لم يمل على تصرفى أى فكر أو أى علم، بل فقط إيمانى بحقى وانبعاث روح المقاومة تمسكًا بالحق وصيانة للكرامة.

قد يفقد المرء روح المقاومة لأنه يجهل نصوص القوانين التى تحافظ على حقوقه.

وتقول مرة أخرى: إنه لا مقاومة بدون علم، ولا علم بدون وعى ولا وعى بدون إرادة، ولا إرادة بدون أخلاق، ولا أخلاق بدون إيمان، وربما لا إيمان بدون وعى، إنها إذن دائرة يجب البحث على طرفها الأول حتى تبرز فى النهاية روح المقاومة.

والوعى بالذات ضرورة شرط أساسى للوعى بالمجتمع. لا يتم إلا فى

حالة إيجاد التوازن بين الذات والأنا العليا، فإذا استحوذت علينا الأنا العليا فليس هناك فرصة لأى تفاعل مع الآخرين والأنا العليا مطلوبة فهى قد تساعد على الإبداع وتحقيق الذات، ويفيد تحقيق الذات فى خدمة الآخرين، دون الذهاب فى خيلاء وكبرياء بعيدًا عن الأقران الذين يكونون مجتمعًا واحدًا.

العلاقة بالمجتمع هى الأساس للتغيير والمقاومة ولقد اعتادت النخب الثقافية العربية أن تقرر مواقفها على أساس العلاقة بالأنظمة، لا على أساس العلاقة بالمجتمع، وبهذا أسهمت هذه النخب فى القضاء على إمكانية التطور نحو الديمقراطية، وظاهرة انعدام الديمقراطية فى الوطن العربى ليست نتيجة لوجود أنظمة قمعية، بل هى حصيلة تخلى الطليعة المثقفة عن المجتمع المدنى لصالح علاقتها بالأنظمة السياسية.

ولا سبيل للمواطن العادى أن يفهم ما تقول النخبة التى يتوهم أعضاؤها أنهم يقودون الأمة إلى التقدم، فالماركسية أبدًا لم يفهمها العامة ولم يستسيغوها، والليبرالية مفهوم غامض لا يعى أصحابه مولده وتطوره ومضامينه وربما تجد الدعوة القومية صدى لدى بعض المواطنين باعتبار الأخوة العربية واللغة الجامعة لشعوب الأمة الواحدة - ولكن ينقص الوعى بالذات فكلما زاد الوعى بالذات شعر المواطن العربى بانتمائه إلى الأمة. والوعى بالذات يحتاج إلى ثقافة والوعى بالأخطار التى تتهدد كيان ومقدسات الأمة ومعتقداتها - ولقد تجلت الدعوة للتعاون والوحدة إثر إعلان دولة إسرائيل، وطرد الفلسطينيين من ديارهم، تحمست الجماهير العربية للدفاع عن القضية، ولم تعترض على دخول الجيوش العربية الحرب، بل رحبت بذلك أيما ترحيب، وحينما حدث العدوان الثلاثى على مصر، قامت الأمة العربية على بكرة أبيها لتناصر مصر ضد العدوان الثلاثى، مظاهرات فى كل أرجاء الوطن العربى، وقطع العمال العرب خطوط الإمداد بالبترول وامتنعوا عن تفريغ

السفن الأمريكية فى الموانئ العربية. وفى حالة الجزائر ساعدت الشعوب العربية الثورة هناك، وقدمت الشعوب العربية، وخاصة الدول الغنية فى الخليج أكبر مساندة للمسلمين فى البوسنة والهرسك ليقفوا أمام الصرب والكروات المعتدين على حقوقهم وأراضيهم.

ولكن ماذا حدث للعرب بعد ذلك؟

وتتكرر المواقف المأساوية - فإذا كانت خطيئة الأمم المتحدة فى الماضى هى قرار تقسيم فلسطين وهو ما لا تملكه، وعدم خضوع إسرائيل لقراراتها دون أى عقاب، فإن الخطايا تجاوزت كل منطق والسكوت عليها فاق كل حد.

وأصبحت القرارات تتوالى بفرض حصار على السودان لدعمه للإرهاب وفق المنطق الأمريكى، بل وتدمير مصنع دواء سودانى بحجة أنه يصنع أسلحة كيماوية، وفرض حصار على ليبيا لعدم تسليم مواطنيها للمحاكمة فى دولة أخرى بدعوى الاشتراك فى إسقاط طائرة مدنية أمريكية، مع أن أمريكا التى تسقط الطائرات المدنية، وطائرة إيران شاهد على ذلك، وإسقاط إسرائيل لطائرة مصرية فى السبعينيات مَثَل آخر، وفرض حصار على أفغانستان لعدم تسليمها مواطن سعودى يحارب أمريكا، أى أن محور كل قرارات الأمم المتحدة يتفق مع السياسات الأمريكية المعلنة فى حرب ضد العرب والمسلمين. وكأنه لم يبق للأمم المتحدة غير تكليف الممثلين والفنانين بالقيام بالمهام الإنسانية.

ولم يكن حصار العراق المقصود به صدام حسين أو رجال حكمه، ولكن شعب العراق والبنية الأساسية للوطن، وصار هذا واضحًا فى أثناء الغزو حيث حرضت القوات الغازية على تخريب معظم البنية الأساسية للعراق ونهب الممتلكات ومحو ثقافة أمة، عن طريق تخريب المتاحف العراقية ونهب محتوياتها. وتهريب معظمها إلى خارج البلاد.

ولم يكن العراق يملك أسلحة دمار شامل، واستقالات ممثلى الأمم

المتحدة الواحد بعد الآخر شاهد من أهلها على الحقيقة التى أغمض الحكام العرب أعينهم عنها إرضاء لأمريكا. وتم غزو العراق بدون موافقة الأمم المتحدة وأمريكا تتجاهل اعتراض الملايين فى شتى بقاع العالم.

والجماهير العربية غائبة عن ساحة المقاومة ضد أعداء الأمة. تاركين العراق يواجه تحالف قوى الشر بمفرده.

ووفق التعبير المنحوت من المثقفين تحت دعوى العولمة بديلاً لكلمة «الأمركة» أسقطت كل الفلسفات وسياسات التخطيط، ولا يختلف ذلك عن تعبير (الفرنسة) فى القرن الماضى. وأصبح نهب ثروات الشعوب يحمل شعار الخصخصة التى يروج لها البنك الدولى بفلسفة أمريكية بحتة عن مفهوم الرأسمالية.

لقد أصبح المال هو القيمة، والقوة هى القانون والعولمة هى الطريق، وأصبح النضال المسلح إرهابًا والمناضل إرهابيًا، بل والعمالة التى كانت عقوبتها فى الماضى هى الإدانة التى يصل الحكم فيها للإعدام هى راية للفخار ومصدر للدعم، فلم يعد عيبًا أن تذهب المعارضة العراقية إلى واشنطن لتسليحها ودعمها، ولم يعد عيبًا أن تذهب المعارضة السودانية إلى واشنطن وغيرها للدعم والمساندة.

ولم يعد عيبًا أن تذهب المعارضة السورية والمصرية إلى واشنطن آملة فى العودة على دبابات الغزو الأمريكى كما عادت المعارضة العراقية إلى العراق.

ولم يعد عيبًا أن تتولى حكومة عميلة الحكم بعد أن يتم الغزو وتستقر الأمور للقوات الغازية.

صحيح أن البعض كان يذهب فى الماضى إلى واشنطن طلبًا فى العون، ولكن كان هذا سرًا فإذا انكشف وظهر فى العلن سقط الحزب أو الفرد وهرب إلى الظلام، ولكننا اليوم نجد أن علانية العمالة أصبحت

مجدًا وحقًا ومراجعة خطب الكيان الصهيونى عن تيارات عربية تعاونت معهم على مدى الأربعين عامًا الماضية ضد إرادة الأمة العربية - كانت سرًا ومحل إنكار أصحابها، فأصبحت مصدر التقدير والفخر هذه الأيام بدعوى الرؤية الصائبة، وتجاوز الزمن وما إلى ذلك من نحت المثقفين العملاء من تعبيرات لخداع الشعوب وإخفاء الحقيقة.

ولم يعد الوعى العربى يدفع برجل الشارع حتى يظل يتساءل بأعلى صوت: لماذا تستورد الدول العربية البن من البرازيل ولديها البن فى اليمن، ولماذا تستورد اللحوم من أستراليا وأوروبا وهى تحمل فيروسات جنون البقر والحمى القلاعية وعندها الماشية فى السودان والصومال، ولماذا تتاجر فى سجاجيد الصلاة والمسابح المصنوعة فى تايوان، ولماذا تستورد القمح ولديها الأرض الخصبة الشاسعة والماء الوفير نسبيًا فى السودان والعراق؟

وقد يبلغ الوعى بالمواطن إلى تساؤلات أكثر عمقًا: لماذا نجح الاتحاد الأوربى بعد أن كانت بداية السوق الأوربية المشتركة فى نفس العام تقريبًا الذى دعت فيه الدول العربية إلى إنشاء السوق العربية المشتركة؟

وأُلغيت الحدود والقيود فى تنقلات البشر ورؤوس الأموال بين دول مختلفة اللغات والأصول العرقية حتى بلغ الأمر بدولة مثل ألمانيا أن تدعو إلى قيام دولة أوروبية واحدة تضم حتى إنجلترا وهى جزيرة منفصلة عن القارة، لماذا تم هذا ولم تفعل الجامعة العربية أمرًا ذا بال أو تخطو السوق العربية المشتركة خطوة واحدة إلى الأمام؟. وقد سبقت اتفاقيات السوق العربية المشتركة فى مولدها منظمات أوروبا فضلاً عن أنها تقوم بين دول تتحدث العربية وتتواصل دون فواصل طبيعية من جبال وبحار.

ولن تطول الحيرة بالسائل حتى يدرك جوابه حينما يكتشف أن المنظمات العربية تحمل فى نسيجها جراثيم معوقاتها، فمنظمات

الجامعة العربية تستلزم الإجماع لترى مشروعاتها النور، ويكفى اعتراض دولة واحدة حتى لا ترى النور.

أما الجامعة الأوربية فتكفى الأغلبية لقيام المشروعات وتنفيذها كما أن بعض الدول العربية تشترط موافقة مؤسساتها الدستورية على اشتراكها فى المشروعات وغالبًا ما تعترض هذه المؤسسات.

ونعتقد أنه آن الأوان لتهب الجماهير العربية لتعترض وخاصة وقد وثبت إسرائيل لتلقن العرب عواقب الوقوف والتعثر؛ تمد يدها بالشرق أوسطية بديلاً عن العروبة لتسيطر التقنيات الأمريكية الحديثة والعالمية وتمتلك زمام القيادة الحضارية فى هذه البقعة العربية الشاسعة الممتدة من الخليج إلى المحيط وتسخّر أهلها بكل قدراتهم وإمكاناتهم المادية والبشرية لتكون سوقًا رائجة وبقرة حلوبًا وبشرًا خاضعًا لآلهة التكنولوجيا والتقدم العلمى والتقنى المسيطر، وترجع إلى أسواق النخاسة، وتعاد مآسى الهنود الحمر.

والجامعة العربية إزاء كل هذا تغط فى سُبات عميق ولا تستيقظ، وحتى أن تتعدد وتتوالى المؤتمرات، وأن يعقد المؤتمر الاقتصادى العربى.

وأصبح واجبًا أن يفيق العرب من رقادهم الطويل بعد أن زحفت وسائل الإعلام العربية وخاصة الفضائيات بالأخبار التى لا تطاق عن ملحمة الانتفاضة، إنه لأمر غريب أن تهتز الرؤوس وتفتح الثغور فى بلاهة ويتحرك الناس فى بلادة وكأنهم مُغَيَّبون فى هذا الزمن الذى تعصف فيه قوى الشر بكل مقوماتهم.

فى مواجهة البرجوازية العفنة

لقد تلازم مع حركات التحرير فى الوطن العربى ظهور فئة اجتماعية نالت من الامتيازات الكثير وهى فئة البرجوازية، وباسم الوطنية التى تستغلها فى انتهازية، تدعى أنها تعمل لمصلحة الشعب وتطالبه بدعمها، والحقيقة أن نشأتها الحديثة نسبيًا وضعفها كفئة اجتماعية بدون أسس راسخة فى البلاد، وتقاليد الكفاح الحقيقية لديها تحد من قدرتها على تحديث الوطن وتظل عميلة وتابعة للقوى الأجنبية الثقافية والاجتماعية، فهى نبت شاذ، ظهر فى تربة غير صالحة.. حيث أنها لم تتهيأ بعد لرعاية هذا النبت الوليد. تختلف هذه الطبقة البرجوازية عن الطبقة البرجوازية فى أوروبا، أولاً أنها ظهرت بمحض الصدفة، أوجدتها الظروف الدخيلة على الوطن، إما الاستعمار منذ بدايته أو ثورات الجيوش العربية، التى صنعت طبقة من القيادات لم يكن من المتوقع فى يوم من الأيام أن تصل إلى سدة الحكم. وغالبًا ما كانت هذه الفئات فاسدة بحكم الحماية التى كرسها لها النظام، فهم دائمًا أهل ثقة حتى لو خانوا هذه الثقة، ولم يكونوا فى غالب الأحوال أهل خبرة، وجاءت هذه الفئة بأصدقائها وأقاربها لتتوسع الطبقة البرجوازية، وتمتد عبر خيوط العنكبوت لتحوى كل مؤسسات الأمة. هذه الفئة الفاسدة والجاهلة ظلت تخرب فى مؤسسات البلد التى سعت الثورة لبنائها، وسيرتها لمصلحتها، وأصبحت هذه الفئات فئات مستهلكة وليست منتجة أضرت كثيرًا باقتصاديات البلد، وعملت على انهياره وضموره، فلم تحاول أبدًا فى تطويره. ولا نعلم لماذا ظل المهندسون والعلماء فى هذه المؤسسات الجديدة محافظين على القديم لم يطوروا من أدوات الإنتاج

ولا فى أساليب الإدارة، ونتيجة لهذه السلبيات هرمت المصانع، خارجة عن نطاق العصر، وأصبحت شبه خردة من الطراز القديم والإنتاج غاية فى السوء لا يقدر على المنافسة فى السوق الخارجية ولا فى السوق الداخلية التى أغرقت فى كثير من الحالات بالبضائع الأجنبية المتفوقة على الصناعة الوطنية.

وكان السبب الوحيد فى تدهور أحوال الصناعة غياب الديمقراطية والنقد لإدارة هذه المؤسسات الجديدة ومصانعها، بل أن مديرى هذه المؤسسات كانوا تحت الحماية، فهم من ذوى القربى والمحاسيب ويظل عبدالحكيم عامر مثلاً صارخًا للإبقاء على الإدارات الفاسدة فهو ظل قائدًا للجيش رغم ما عُرف عنه من جهل وفساد حتى وصلنا إلى النكسة عام ١٩٦٧، فريق كبير من المديرين عاث فسادًا فى إنجازات الثورة – ويظل اختيار القيادات على نفس النمط لا يتغير. رؤساء الأحياء والمحافظون معظمهم من الجيش والقضاة، وربما بعض أساتذة الجامعات وهؤلاء جميعًا أبعد ما يكون عن العمل السياسى وفن الإدارة، أغلبهم مرتشون غير مثقفين لا يدركون أبعاد واجبات الوظيفة ومسئولياتها، وهل المحافظ فى بلد عربى يصل إلى مستوى حاكم ولاية فى أمريكا أو محافظ فى لندن أو باريس أو برلين...؟ لا أعتقد.

لقد كان هناك تلازم بين ظهور الطبقة البرجوازية فى أوروبا والتقدم العلمى، واتجه العلم ليخدم البرجوازية وتطلعاتها الجديدة، وازدهرت العلوم فى أوروبا، وتحولت الورش الصغيرة إلى صناعات كبيرة، وزاد عدد المخترعين، وظهرت الاختراعات فى كل مجال، وبرز دور المثقفين والمفكرين والفلاسفة. وأذاع آدم سميث أفكاره عن تحرير الفرد والاقتصاد، وساندت حركة التحرير الاتجاهات الفكرية الجديدة لتغيير روح المجتمع والانتقال به من الحكم الاستبدادى الفردى إلى حكم الشعب ومشاركة الجماهير... كان هناك برجوازية فكرية ابتعدت تمامًا عن

صيغة الحكم الإقطاعى الاستبدادى ودعت إلى العقد الاجتماعى كما قدم روسو، ومونتسكيو وآخرون... وفى البلاد العربية يظل الاستبداد الفكرى، يعمل لمصلحة السلطة، والاستعمار الأجنبى والطبقة البرجوازية الثقافية تابعة للغرب تنقل عن مقولاته، وهى مقولات لم تنلح حتى الآن فى إحياء روح النهضة العربية، بعد أن ساهمت فى طمس الهوية الوطنية مما أدى إلى ضبابية الانتماء، وعدم الإيمان بقضية المقاومة. وتجىء قضية التقدم فى المقدمة، فهى قضية غير واضحة بالمرة - ولا يعرف أحد الطريق إلى وضعها الصحيح، المجتمع عاجز عن تحقيق التقدم، والتقدم له شروطه.. والتقدم فى الأساس قام على العلم.

والفلسفة القديمة فى أوروبا لم تكن أبدًا الطريق إلى المعجزة الإدارية التى تحققت مع بداية القرن السابع عشر، مع ظهور بوادر العلم الحديث بل حتى الفلسفة الحديثة لم تكن أبدًا السبب لتطور العلم الحديث، بل أنها أدت إلى كوارث عانت منها البشرية جمعاء.. وما جاءت مقولات ما بعد الحداثة إلا كعلامة اعتراض على الحداثة.. ومقولاتها.

ومع كل ذلك، فإن أهم ما تشير إليه أفكار ما بعد الحداثة هو سقوط الحكايات الكبيرة، والإصرار على محاورة الواقع... والواقع العربى مؤلم وكئيب ولا يختلف أحد على وجوب تغييره، والغريب فى الأمر أنه لا يتغير - وهو ليس حتى على حالة ثبات بل إنه يتراجع وباستمرار، فالهوة تتسع بين مجتمعاتنا العربية والعالم المتقدم، وإننا عاجزون تمامًا على صنع التقدم.

لعلنا كما يعبر هابر ماس فى نظريته جادلنا اتباع عقلانية وظيفية وأداتية دون النظر لعالم الحياة الاجتماعية، فهابر ماس ينظر إلى العقلانية على أنها نوعين: نوع يؤدى إلى توسيع نطاق العقل الأداتى فى مجال الإنتاج المادى والإدارة، ونوع يؤدى إلى توسيع نطاق الفعل التواصلى فى مجال الأخلاق والحياة الاجتماعية، كما أن تطور الإنسان

المعيارى للمجتمعات وتطوره ووعى هذه المجتمعات بذاتها ووعى الأفراد بذواتهم يعتمد على توسيع نطاق الفعل التواصلى القائم على أساس التفاعل الاجتماعى والتفاهم المتبادل بين الذوات.

وهذا الطريق ربما يقود بنا إلى تنظيمات ديمقراطية حقيقية وإلى قوانين تنظم حياتنا بطريقة أفضل - على الرغم من رفض الكثير من فلاسفة ما بعد الحداثة للذات - تظل الثقة فى الذات باعتبارها كيانًا قادرًا على الممارسة الواعية بنفسها وتستطيع تحقيق الاستقلال والتوافق مع الغير.

هل الوعى بالذات هو وعى بالهوية..؟

إن الهوية تتعلق بسؤال من أكون؟ والإجابة على السؤال تعبر بالطبع عن الهوية، والإجابة عريضة بقدر شمولية الفكر الإنسانى.. وتختلف اختلافًا كبيرًا من حالة لأخرى ففى المجتمع البدائى قد تكون الإجابة بسيطة وقد لا يطرح السؤال من الأصل، فالإنسان البدائى يعيش فى محيط ضيق جدًا، وربما لا يتعدى تفكيره هذا النطاق إلى رحاب أوسع، وهو لا يعلم الكثير عن الطبيعة والمجتمع، وربما لا يصل بتفكيره إلى الدين والعقيدة، وبالتدريج يأخذ الإنسان فى التعلم.. حتى يصل إلى مرحلة متقدمة من الوعى والإدراك، والفهم، ويبدأ مع ذلك فى الوعى بذاته - وكلما زادت مداركه واستيعابه اتجه إلى شمولية أكثر، والإنسان فى حالته المثالية بلغ الدرجة القصوى من الشمولية، أما الإنسان البدائى فهو يقترب أو يبتعد عن الشمولية حسب ظروفه الخاصة والعامة، وفى رأيى أن الشمولية تعنى الثقافة، واتساع معرفة الإنسان وأفقه وتحصيله ويصبح بذلك أكثر تأثيرًا فى ذاته وفى المحيط الذى حوله. ويرقى المجتمع إذا زاد فيه عدد هؤلاء الشموليين وبالتفاعل بين الذات والآخر تقوى الذات ويقوى المجتمع ويصير مجتمعًا قادرًا على المقاومة وبناء المستقبل. نحن نقاوم من أجل تغيير الحالة الجامدة المتخلفة للوصول

إلى حالة أفضل، وحتى نغير يجب أن نعرف لماذا نغير وكيف نغير..؟ إن هناك معايير أو نموذج مثالى يريد المرء أن يصل إليه، وللأسف المعيار أو النموذج الذى نريد أن نصل إليه نموذج أجنبى هو النموذج الغربى بدون شك، أريد أن أصل إليه على صورته العلمية التقنية الحضارية المتفوقة لا إلى أخلاقياته وعلاقاته الاجتماعية التى لا تروق لى، إلا أن التقدم قد تكون له صلة ما بالعلاقات الاجتماعية، وهنا نحن فى حاجة إلى فهم عميق لدور العلاقات الاجتماعية فى مسألة التقدم، نحن نرى فى الغرب صفات إنسانية كثيرة على الرغم من أن الصورة فى الظاهر لا تنم عن ذلك، فغالبًا ما نرى فى الغرب إباحيته وجنوحه الشديد نحو التحرر والفردية، مع أن الغرب فى حقيقة الأمر تغلب عليه فى معظم الأحيان المحافظة والانضباط، الأطفال يتعلمون احترام القانون، وأهم ما فى الأمر النظافة، وقد يستخف القارئ العربى بموضوع النظافة، ولكنها ترتبط أساسًا بالتذوق الجمالى، وتربية الجمال هذا أمر مهم للغاية فى تنشئة أجيال ترى الجمال فى أفعالها وتصرفاتها وعملها وعلاقاتها مع الآخرين، الخير الحق الجمال مترادفات لشىء واحد هو الجمال، إننا نرى الجمال فى الخير والحق، ونرى الخير فى الحق، والجمال.. إلخ.

والفضيلة هى الجمال بعينه، وتعلم الفضيلة يفضى إلى جمال الروح وجمال الخلق، وكلما مارس الإنسان الفضيلة أصبح رجلا أفضل، ونحن فى أشد الحاجة إلى هؤلاء الذين يتمسكون بالفضيلة لإدارة شئون بلادنا، وخاصة الجامعات ودور التعليم، هؤلاء الأساتذة يربون الأجيال، وأهم واجبات التعليم هو تعليم الفضيلة.

وإذا لم يتعلم الطفل أن يكون نظيفًا فى كل شىء ومنظمًا فى كل شىء، لن يهتم حينما يكبر أن يعيش فى مجتمع نظيف ومنظم، حياته كلها لن تكون منظمة وعقليته لن تكون منظمة. ولن يستطيع التحليل، ولا التفكير العلمى الناقد - ويظل مثالاً للفوضى والتخلف.

هل بعدنا عن الهوية... لا أعتقد... أن الهوية تتضمن كل هذا العروبة والإسلام والحرية والديمقراطية وعلاقتى بالطبيعة وبالعالم، وقبل ذلك أنا عضو فى مجتمع مترابط ومتماسك، أنا منتمى لأمة أحافظ على كرامتها وأدافع عن كيانها ومقدراتها، أنا أسعى لرفاهية الناس.. كل ذلك أصل إليه من خلال وعى بالذات وقوتها تتحقق بتفاعل الآخرين. وبناء مجتمع قوى يعتمد فى الأساس على وجود فرد قوى واع بسلوك حضارى متميز، فى القلب منه التذوق الجمالى، الدافع للأخلاق والنظام والحب والإخلاص والفضيلة، نوع من المثالية الحالمة يحقق الكمال الروحى فى إنسان معاصر يسعى ليعم الخير.

مقاومة الهيمنة الأمريكية

لقد أسست الولايات المتحدة ومنذ أمد طويل مشروعها للسيطرة على العالم، وفى بداية الخمسينيات والستينيات اعتبرت نفسها القوة التى تملأ الفراغ فى الشرق الأوسط هذا بجانب صراعها المستمر كقوة عظمى مع الاتحاد السوفيتى فى أثناء الحرب الباردة، ومنعها من تحقيق مآربها حركة التحرر التى اجتاحت العالم الثالث بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، ورأى الاتحاد السوفيتى فى حركة التحرر وسيلة تدعمه فى حربه ضد الولايات المتحدة، أو على الأقل تحد من انتشار النفوذ الأمريكى على مساحة أوسع من بقاع العالم.

وكان المنطلق الثورى هو فعلاً العامل الأساسى للوقوف بقوة لمقاومة قوى الشر فى العالم. ولكن لم تسير الأمور كما كان مقدرًا لها، واستطاعت قوى الشر مع نهاية السبعينيات أن تفكك الحركة الثورية العالمية لحسابها، حتى كان المنعطف الأول والأخير لحركة المد الثورى الذى تمثل فى أحداث ١٩٦٨ التى عبرت وبصدق عن مقاومة عنيفة لما يحدث للعالم الضعيف، قامت بها فلول القوى المنكسرة التى راحت تسير فى طريق الهزيمة بعد سقوط رموز الثورة العالمية واحدًا بعد الآخر، وحتى اللحظة الأخيرة كانت مصر تمثل طوق النجاة للمهمشين فى العالم بصمودها، وكان أمل هؤلاء أن يلتف حول مصر بصفتها الموقع الأخير للمقاومة، ولكنها خانتهم وهى تعلن الصلح مع إسرائيل ودخولها فى اتفاقيات كامب ديفيد، تفتت كتلة العالم الثالث المناهضة للقوى الكبرى، وبات الاتحاد السوفيتى لوحده فى العراء، فوجهت الولايات المتحدة ضرباتها إليه وعملت على انهيار وحدته حتى يسقط أخيرًا فى أواخر

الثمانينيات، عندما أعلنت الولايات المتحدة عن وجهها القبيح، وصارت تتصرف على أنها القوة الوحيدة العظمى فى العالم. وبرزت صورة التطرف الأمريكى تمثله أقوال هنتنجتون وفوكاياما.

فوكاياما يقول بنهاية التاريخ، وانتصار الثقافة الغربية الليبرالية بمظهرها الأمريكى، وعلى العالم كله أن يخضع لهذه الثقافة. فلا مكان لثقافات أخرى بجانبها، أما هنتنجتون فيعلن أنه مع انهيار الاتحاد السوفيتى فإن الخطر الذى سوف تواجهه أمريكا يأتى من الشرق من الصين والبلاد الإسلامية. لقد مثّل الإسلام بأنه قوى الشر التى تعمل على القضاء على الديمقراطية والحرية فى العالم.. ومن خلال كتاباته هيأ الرأى العام الأمريكى لينظر إلى الإسلام على أنه العدو الأول، وفى حقيقة الأمر كان فوكاياما وهنتنجتون يعبران عن وجهة النظر الرسمية بل على الأرجح أنهما كانا مكلفين من قِبَل الحكومة الأمريكية بعمل هذه الدراسات، ويظن السُذَّج أن ما يقول الاثنان ما هو إلا آراء فردية لا تعبر عن وجهة نظر الولايات المتحدة الرسمية، وذهبوا يناقشون وينتقدون هذه الآراء وتعالت صيحات كثيرة من المثقفين فى الولايات المتحدة تنتقص هذه الآراء المتطرفة.

ولكن الأمور كانت تندفع رغم أنف الجميع تجاه تحقيق نظرية هنتنجتون، وبات العداء للإسلام واضحًا للجميع وبدون مواربة وحتى من قبل أحداث ١١ سبتمبر التى يقول البعض إنها حملت أمريكا على التحرك لحماية أراضيها والأمريكيين وأن تبادر بضرباتها الاستباقية. فتغزو أفغانستان ثم العراق. وللأسف لن تقف تهديدات أمريكا عند هذا الحد فشهوتها للسيطرة لا حدود لها. وهى تعلن ليل نهار أنها تريد تغيير خريطة الشرق الأوسط. وفى حججها لغزو العراق ساقت فى مبرراتها أنها تنوى العمل على قيام نظام ديمقراطى حر فى العراق يكون مثلاً للأنظمة العربية الأخرى. ثم نراها توجه تهديداتها المتكررة لإيران

وسوريا. ولا تخلو الصحف الأمريكية من هجوم على النظام السعودى والنظام المصرى.

ولم يكن كل هذا الهجوم الشرس على الأمة العربية والإسلامية نتيجة مباشرة لأحداث ١١ سبتمبر بل أن أمريكا قبل هذه الأحداث كانت قد كشفت عن معاداتها الصريحة والمؤكدة لحقوق الشعب الفلسطينى وذهبت فى تأييدها لإسرائيل إلى مداه.

وأظهرت الأحداث التى مرت فى المنطقة كيف شاركت الأنظمة العربية مع الولايات المتحدة فى قمع الشعوب العربية التى تحن دائمًا للتخلص من السيطرة الخارجية وقوى الاستبداد الداخلية. والتحالف المهين بين أمريكا والأنظمة العربية والتى ظهر قويًا بالذات فى اتفاقيات كامب ديفيد، والمضى فى مسلسل الاستسلام.

وكانت البداية مع انتفاضة الأقصى التى قام بها الشعب الفلسطينى عند زيارة شارون للقدس. وحاولت إسرائيل أن تقضى على الانتفاضة. ففزت بجنودها ودباباتها مدن وقرى الأراضى الفلسطينية وأوقعت بالمواطنين خسائر كبيرة فى الأرواح والممتلكات.

وإزاء هذه العدوان الآثم على الشعب الفلسطينى الأعزل هبت الشعوب العربية كلها من أدناها إلى أقصاها فى مظاهرات عارمة ضد الاعتداء الإسرائيلى على العرب، وفى رياء بغيض اتخذ مجلس الأمن قراره بوقف اعتداء القوات الإسرائيلية وانسحابها من الأراضى الفلسطينية، وربما لأول مرة لم تستخدم أمريكا حق الفيتو، وكان الغرض من ذلك بالطبع امتصاص غضب الجماهير العربية.. وبالطبع أيضًا لم يكن فى مصلحة الأنظمة العربية أن تقوى ثورة الشارع العربى وانتفاضته ضد الاعتداءات على كرامته، فلا تلبث أن تضرب الحركةالشعبية المناهضة لإسرائيل وأمريكا، وتتكمش مساحة دعم المقاومة الفلسطنية، وترجع الجماهير العربية صامتة يائسة مغلوبة على أمرها، محبطة، لا

تجد السبيل للاعتراض على ما يحدث. وتتمادى إسرائيل فى اعتداءاتها وتحاصر عرفات فى مقره فى رام الله وتدخل قواتها جنين وتُسفر المعركة عن خمسمائة شهيد، ويتخذ مجلس الأمن قراره بتكوين لجنة تقصى الحقائق عما حدث فى جنين - وأمريكا لا تستخدم حق الفيتو.

وترفض إسرائيل السماح لعمل اللجنة، وفى أثنائها يذهب الأمير عبدالله إلى واشنطن، ليساوموه هناك على حياة عرفات مقابل التغاضى عن استمرار لجنة تقصى الحقائق فى عملها، ويخرج أمين هيئة الأمم المتحدة على العالم بقرار وقف أعمال اللجنة.

ومرة أخرى يذهب الأمير عبدالله إلى أمريكا ويرجع محملاً بالتعليمات «الأوامر» ويجتمع مع حسنى مبارك وبشار الأسد فى شرم الشيخ ليصدر المجتمعون إعلانًا بإدانة المقاومة الاستشهادية باعتبارها أعمالاً إرهابية.

ويذهب أمير دولة البحرين إلى واشنطن ويرجع بتعليمات جديدة تنص على الدعوة إلى اجتماع للجامعة العربية، لتأخذ قرارها بإدانة صدام حسين لأنه مازال يمتلك أسلحة دمار شامل ولا يمتثل لقرارات الأمم المتحدة... وتتبرى مصر للدعوة لاجتماع القمة بعد أن كان حسنى مبارك يردد دائمًا بعدم جدوى الاجتماع.

وأخيرًا تعلن أمريكا الحرب على العراق دون موافقة الأمم المتحدة على إعلان الحرب.. كخطوة أولى فى الاتجاه لضرب سوريا وإيران.

وتظل أمريكا تسعى لإصدار قرار من الأمم المتحدة لإعطاء شرعية لاحتلالها للعراق، حتى يصدر قرار مجلس الأمن رقم ١٤٨٣ ليعطى الشرعية للاحتلال ويؤكد الاعتراف للولايات المتحدة بأنها سلطة احتلال وبذلك تبدأ موجة جديدة من الاحتلال التقليدى لمنطقة الشرق الأوسط.

لقد أوجد الاحتلال الأمريكى الإنجليزى للعراق تداعيات خطيرة على الفضاء العربى سواء من حيث السيادة أم بتحويل منطقة الفضاء العربى

إلى منطقة نفوذ أمريكى. ويبين هذا وذاك ضرب الرابطة القومية من خلال إنهاء العمل بمفردات الأمة العربية والعالم الإسلامى - والوطن العربى، والصراع العربى الإسرائيلى إلى إشاعة مفردات الشرق الأوسط الكبير، وشمال إفريقيا، والدول العربية، والصراع الإسرائيلى الفلسطينى بدلاً من الصراع الإسرائيلى العربى وأصبحت حدود السيادة العربية هى ما تراه الولايات المتحدة متوافقًا مع مصالحها وليس كما ينص عليه القانون الدولى أو تحلم به الشعوب.

وتصبح العراق أولى ميادين الولايات المتحدة التى تسعى فيه وبجد على منع صدور القرار القومى وهو ما يعد أحد أسباب حملتها على سوريا، وهى تحاول إضعاف المكون العربى فى تركيب العراق ما بعد الحرب وإعلان الاعتبارات التجزيئية كالانتماءات الدينية والعرقية. وبينما كانت الدولة الوطنية في العراق قد اختفت فى أحداث الاندماج القومى ودعم أولوية الانتماء العربى وتجذيرها، فإذا بالولايات المتحدة وهى القوة الدافعة للعولمة تسعى فى العراق بمسعى مناقض تمامًا - سعى يكرس التشتت والبلقنة. لقد تم تشكيل المجلس الانتقالى العراق فى يوليو ٢٠٠٣ كنواة للسلطة العراقية الجديدة التى تولد وتكبر كسلطة عميلة تحت إمرة الحاكم الأمريكى للعراق فى اتجاه تكوين فيدرالية عراقية يتعزز فيها الميل للانقسام أكثر من الميل للتوحد مع إخفاق المؤسسات الوطنية وضعف الحافز على الوحدة.

وجاء تشكيل المجلس الانتقالى تفصيلاً للانتسابات الدينية والعرقية (١٣ عضوًا من الشيعة، وخمسة من السنة وخمسة من الأكراد وعضو مسيحى وعضو تركمانى) ومهدوا ببلقنة العراق أو وقوعه فى ظل سلطة الاحتلال فريسة لنزاعات داخلية قد تصل إلى الحرب الأهلية التى تخلق مبررًا إضافيًا لسلطة الاحتلال، لكى تظل لأطول فترة زمنية بدون تحديد سقف زمنى للانسحاب.

كما أوضحت الأحداث التى سبقت العدوان على العراق ثم وقوع هذا العدوان أن الأمم المتحدة لم تعد هى المنظمة التى يمكن أن تركن إليها الدول فى حماية أمنها وسلامة أراضيها، فلم تستطع الأمم المتحدة وقف العدوان أو حتى المطالبة بوقفه.

وتواصل الولايات المتحدة تنفيذ مخططاتها حيال المنطقة العربية وتحت ستار التخلص من أسلحة الدمار الشامل تهدد بالتدخل العسكرى، وهذا التهديد لا يطبق على كل الدول وتستثنى منه الدول الحليفة للولايات المتحدة. ولهذا حين تقدمت مصر وسوريا بمبادرة إخلاء منطقة الشرق الأوسط من أسلحة الدمار الشامل، كان أول المعترضين الذى أجهض المبادرة الولايات المتحدة التى تصر على انفراد إسرائيل بامتلاك هذه الأسلحة، ومن ثَمَّ فقد بات أمن الدول فى الفضاء العربى تهدده الولايات المتحدة، لمصلحة إسرائيل، فهى تضغط على سوريا لطرد منظمات المقاومة الفلسطينية من أراضيها، كما تضع المنظمات بما فيها حزب الله اللبنانى فى قائمة الإرهاب، وتسعى بكل الوسائل لإجبار الدول العربية على التخلص من كل ما يتعلق بصناعة أسلحة الدمار الشامل فى حين أن إسرائيل تمتلك ترسانة كبيرة لهذه الأسلحة.

ومنذ أن تم للولايات المتحدة احتلال العراق أخذت فى تصعيد حملاتها الدبلوماسية والإعلانية على سوريا مستحضرة للأذهان تلك الحملة التى سبقت العدوان على العراق فى تهديد مباشر بتكرار ما حدث فى العراق لسوريا.

وربما كانت ضخامة مشكلات ما بعد الحرب التى تتعرض لها الولايات المتحدة فى العراق وما تتعرض له من مقاومة وعدم قدرة على إحكام قبضتها على العراق، وإخفاقها فى تطويع هذا القطر العربى مع قرب انتخابات الرئاسة الأمريكية، ووجود علامات استفهام كبيرة أمام بقاء الإدارة الأمريكية الحالية فى ضوء تصاعد الإخفاق الاقتصادى فى

الداخل، وتبديد موارد الدولة الأمريكية بإدخالها فى مشروعات تضر كثيرًا بصورة الولايات المتحدة وسمعتها فى الأجلين القصير والمتوسط، قد يبدو كل ذلك عاملاً يكبح جماح شهوة الحكام فى واشنطن فيؤجل امتداد العمل العسكرى التى قامت به الولايات المتحدة فى العراق إلى إيران وسوريا.

وليست التهديدات الأمريكية لسوريا بجديدة، فمنذ عام ١٩٦٩، وسوريا تظهر بانتظام فى قائمة الدول التى تضعها وزارة الخارجية الأمريكية للدول الداعمة للإرهاب الدولى. وطبقًا لتقرير هذه الوزارة عن الإرهاب فى أبريل ٢٠٠١ استمرت سوريا تقدم ملاذًا آمنًا وداعمًا لجماعات إرهابية فلسطينية (منظمات المقاومة الفلسطينية كما تصفها الإدارة الأمريكية) وتحتفظ بمعسكرات لها فى دمشق أو البقاع الشرقى فى لبنان كما استمرت فى دعم حزب الله اللبنانى الذى يقوم بهجمات على شمال إسرائيل، والقوات الإسرائيلية فى جنوب لبنان، وتخضع سوريا لعدد من العقوبات بمقتضى الإجراءات والقوانين الأمريكية التالية:

١ - قانون المساعدات الأمنية والدولية ورقابة صادرات الأسلحة (١٩٦٦) الذى يطلب إنهاء المساعدات الخارجية للبلدان التى تقدرها الإدارة الأمريكية بأنها تساعد أو ترعى الإرهاب، وبدأ تنفيذه على سوريا منذ عام (١٩٧٩).

٢ - قانون إدارة الصادرات ١٩٦٩ وهو ما يطلب من وزير التجارة والخارجية إعلان الكونجرس قبل التصريح بتصدير سلع أو تقنية تزيد قيمتها عن ٧ مليون دولار إلى البلدان المحددة بأنها تدعم «الإرهاب الدولى»، وقد صنفت الإدارة الأمريكية سوريا على أنها من هذه البلدان.

٣ - قانون الأمن الدبلوماسى ومكافحة الإرهاب عام ١٩٨٦ وهو يحظر تصدير أسلحة وذخائر للبلدان التى تحددها أمريكا بأنها تؤيد الإرهاب.

٤ - قانون مكافحة الإرهاب وحظر صادرات الأسلحة المعدل عام ١٩٨٩.

٥ - قانون منع التمييز الاقتصادى وهو يحظر بيع أو تأجير معدات عسكرية أمريكية أو خدمات لأى دولة تطلب من اى شركة أمريكية أن تطبق المقاطعة العربية ضد إسرائيل.

٧ - فى ١٨ أبريل عام ٢٠٠٢ قدمت مشروعات قوانين لمجلس النواب والشيوخ تضيف عقوبات جديدة على سوريا ما لم تتوقف عن دعم منظمات المقاومة الفلسطينية وتنهى تواجدها فى لبنان وتوقف تطوير أسلحة الدمار الشامل.

- قانون محاسبة سوريا عام ٢٠٠٣ ويدعو إلى محاصرة سوريا إعلاميًا ودبلوماسيًا، وتجميد الأرصدة والممتلكات السورية - واستخدام السلاح إذا دعت الضرورة.

وحينما يصل الأمر إلى ليبيا، لا ينكر أحد وجود نظام ثورى بقيادة معمر القذافى، بالرغم من أخطائه وسلبياته، وبعيدًا عن التوجهات الداخلية وصورة الحكم التى تطبع النظام الليبى - حاول النظام الليبى أن يدفع بالثورة العربية والاتجاه العروبى - وسعى لعدة مرات للدخول فى مغامرات وحدوية مع جيرانه، وقف متحديًا السيطرة الأمريكية وتدخل الولايات المتحدة فى شئون المنطقة، حيث كان الهم الأكبر لسائر الدول الغربية - هو أن يبقى نظام النفط أينما وجد فى يد أمريكا. وأن يستمر على حاله دون تعديل يذكر وفقًا للأنظمة التى وضعها الغرب.

إلا أن النظام الليبى اندفع منذ البداية إلى تحرير نفطه وجعله ملكًا خالصًا لشعبه. ومن هنا بداية الصدام مع الغرب، وصنفت ليبيا من ضمن الأنظمة الراديكالية والقومية التى لن تكون محتملة فى حد ذاتها. وإذا ما بدا عليها النجاح فى تحولاتها الثورية، الموحية بالمعانى للمقهورين فى كل مكان فإن التصنيف الإمبريالى سيدرجها فى خانة الكيانات الحاملة لفيروس قد يعدى الآخرين، والمثال المعدى كما راح هنرى

كيسنجر ينظر إليه هو وغيره من ضباع الولايات المتحدة الأمريكية لن يعدى العرب فحسب وإنما بلدان الجنوب كله.

وكانت ثورة الفاتح بالفعل تحمل رسالة للمعذبين على الأرض، مفادها أن مواجهة المستبد خيار لابد منه. وكانت فى الوقت نفسه أنموذج رفض ملهمة للآخرين، وإلى مستوى ثورة عالمية ثالثة.

ولكن يومها ومن منظور القوة التقليدية، المهيمنة وخدمها الثقافيين، واجهت الجماهيرية، عملية حصار استمرت حتى الساعة، حتى انهيار مقاومتها، وتكمن جذور الانهيار فيما لاقته الجماهيرية الليبية من تخاذل الأمة العربية، وعدم مساندتها فى مواقفها الصعبة مع القوى الاستعمارية.

وفى قضية لوكربى بدلاً من أن يصب الجهد العربى الوافر نقمته فى طاحونة آليات الحصار وأدواته - صب كرهًا ساديًا فى طاحونة الوسائل الإعلامية التى راحت تصرخ ألمًا تجاه الضحايا، وكأن لوكربى لم تكن قصة مفتعلة من أساسها.

ومن المفارقات أن الألم على الضحايا، كان ألمًا عربيًا لن يظهر إلا شكلاً فى أكثر ملاحم فلسطين المأساوية - والأصعب أن صمود الجماهيرية الليبية كان قد بدأ يؤخذ كمبرر لمزيد من العقاب.

كل هذا ولم يذكر كل أولئك الذين يتلوون تحت نعال أمريكا (حسب تعبير لنعوم تشومسكى) شيئًا عن الوضع الذى بدأ العرب يدخلون فى مناخه، ومناخ اتسم بالتراجع، بل حتى بالانكسار، وكانت نتائج حرب أكتوبر قد بدأت تميل إلى نقيضها - وسيصل الأمر مع اتفاقية كامب ديفيد ١٩٧٨ إلى مستوى مريع من التصدع الكارثى لوحدة الصف العربى حتى فى الشكل وليس فى المضمون فقط، ومع غزو الصهاينة فى لبنان واحتلالهم العاصمة بيروت عام ١٩٨٢م فإن التصدع أصاب البنية الأساسية التى تقوم عليها فكرة شرف الأمة وكرامتها. فى حين أن

العدوان الأمريكى على طرابلس وبنغازى ١٩٨٦، كان قد صدع مواثيق جامعة الدول العربية من أساسها، ومع هذه المقدمات، فإن النظام العراقى قد وجد نفسه منفلتًا من أى رادع عربى فأقدم على غزو الكويت، مسببًا بمغامرته هذه الفصل الختامى التراجيدى لنوعية التصدع وتفاعلاته قوميًا وعالميًا.

لقد شخص العقيد القذافى فى واقعة بعد أخرى العجز عن التوحد الذى هو الأساس لكل صمود ودفاع عن شرف الأمة، العجز عن فهم التحولات والمتغيرات العالمية الذى هو عامل شرطى للتعامل تبعًا لخطط مستقبلية.

فيما أن الجامعة العربية تتخبط عشوائيًا، ولا تخضع لغائية قومية شاملة: صار لزامًا عليه، لمعالجتها أن يهديها لبناء جامعة جديدة، جامعة خاصة بالزمن الذى نعيش فيه - بمفهوم التكتل الذى يميز القرن الحادى والعشرين.

وفى كل مرة يعلن القذافى انسحابه من الجامعة العربية يذهب إليه الوسطاء، لإثنائه عن مقصده، ويتردد القذافى فى أخذ القرار الحاسم بالانسحاب، وظل يزور الجامعة فى اجتماع القمة، ويغيب عن اجتماع آخر وينسحب من ثالث، وهكذا حتى وقعت الواقعة.

ومهما تكن الأسباب، هذا الوضع المتردى ما آل إليه حال العرب، وبداية الانهيار ترمى ببذورها فى أعماق التاريخ القريب، فمنذ نكسة فلسطين والعرب يسيرون من سقوط إلى سقوط، حتى وصلنا للنكسة ثم أخيرًا إلى كارثة العراق، ولا يتغير شىء فى المنطقة العربية، لا على المستوى الرسمى، ولا على المستوى الشعبى فعبدالله بن الحسين، ومحمد السادس بن الحسن، وبشار بن الأسد، وفهد بن سعود.. ومن شابه أباه فما ظلم.

اليوم تقول أمريكا للعرب، أطيعوا، لا تقاوموا فالمقاومة لن تأتى لكم

بخير، وأنتم ترون أمام أعينكم ما يحدث فى فلسطين والعراق، وأمامكم أمثلة وديعة تحمل علاقات حميمة مع الولايات المتحدة فى الأردن ومصر والسعودية وسائر بلاد الخليج ونحن نضرب كل مقاومة من القواعد المنتشرة فى الأراضى العربية.

ونحن نسعى لبناء حياة أفضل للمواطن العربى وفى التاسع من مايو ٢٠٠٣ أطلق الرئيس بوش مبادرته لإنشاء منطقة تجارة حرة بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط، فالأسواق الحرة والتجارة على امتداد العالم ساعدت فى هزيمة الفقر وعلمت الرجال والنساء عادات الحرية، ولهذا فإننى أقترح إنشاء منطقة حرة بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط دائرة متسعة من الفرص توفر الأمل للشعوب التى تعيش فى هذا الإقليم.

ولإطلاق النمو الاقتصادى وتوسيع الفرص فى الشرق الأوسط حدد الرئيس بوش الخطوط العامة لهذا المقترح ليقوم فى إطار الاتفاقيات التجارية القائمة بين إسرائيل والأردن، وأن الولايات المتحدة ستتخذ سلسلة من الخطوات المتدرجة تشمل:

١ - معاونة البلدان التى تقوم بالإصلاح كى تصبح عضوًا فى منظمة التجارة العالمية.

٢ - التفاوض على اتفاقات استثمارية ثنائية واتفاقيات إطارية للتجارة والاستثمار مع الحكومات التى اعتزمت تحسين نظمها التجارية الاستثمارية.

٣ - استكمال المفاوضات حول اتفاق منطقة التجارة، الحرة مع المغرب بنهاية ٢٠٠٣.

وأهم بنود هذه المخطط:

تحقيق الاستفادة المثلى من الفرص الاقتصادية عن طريق تعليم أفضل خاصة بين النساء اللائى تعرضن كثيرًا للتهميش وفى هذا الصدد

عبر الرئيس بوش عن خبرة المشاركة الناجحة مع المغرب واليمن للتوسع فى برامج محو الأمية للفتيات والنساء مع الأمل فى توسيع الاستفادة من هذه الخبرة لتشمل البلدان الأخرى المعنية، كما أن الشراكة مع بلدان الشرق الأوسط للمساعدة فى تمكين المجتمعات المحلية والعائلات كى تكون لها صوت مسموع ومؤثر فى كيف يتم تعليم أولادها كما بينت خبرة البرنامج الناجح فى الإسكندرية بمصر، من المجدى أن يتم توسيع الاستفادة منها للمدن المصرية الأخرى والبلدان الأخرى فى الشرق الأوسط، كما أن المشاركة مع بلدان الشرق الأوسط لتقديم حوافز للأسر التى تقدم بناتها للمدارس تكون مبنية على تجارب ناجحة فى كل من مصر والمغرب.

وفى تنمية العدالة والحرية يذكر الرئيس الأمريكى بوش بأن تاريخ العالم الحديث يعطى دروسًا للمتشككين ألا يراهنوا ضد نجاح الحرية. وأن الحرية. قد تقدمت لأن الرغبة فى الحرية والعدالة موجودة فى قلب كل النساء والرجال فى العالم الإسلامى الذى يشكل خمس البشرية، ويشاركون هذا الأمل فى الحرية - وتقترح الولايات المتحدة العمل مع شركائها فى الشرق الأوسط فى المجالات التمهيدية الآتية:

١ - إنشاء منتدى إقليمى للإصلاح القضائى ومحكمة عليا، وقد رشح البيت الأبيض القاضية ساندرا داى أو كونور التى وافقت على أن ترأس فريقًا من القضاة الأمريكيين يذهب إلى البحرين فى بدء هذا الجهد فى خريف ٢٠٠٢.

٢ - إنشاء مدارس إقليمية للتدريب توفر التدريب على القيادة والمهارات التنظيمية للنساء خاصة فيما يتعلق بالمهارات الانتخابية، وأولى هذه المدارس سينعقد فى خريف ٢٠٠٢ فى قطر.

٣ - البدء فى التدريب الإعلامى ومشروعات القوانين التى تنظم العمل الإعلامى - وهذا التدريب يشمل مشاركين من الجزائر والبحرين

ومصر ولبنان والمغرب والمملكة العربية السعودية وتونس.

٤ - توفير التدريب لأعضاء البرلمانات الجدد، ودعم منظمات المجتمع المدنى من خلال مجموعات مثل المعهد الديمقراطى الوطنى والمعهد الجمهورى الدولى فى الولايات المتحدة بالمشاركة مع منظمات الإقليم.

وتضع الولايات المتحدة اتفاق التجارة الحرة بينها وبين إسرائيل وبينها وبين الأردن كنماذج لمناطق التجارة الحرة الثنائية التى ستقوم بينها وبين الدول العربية توطئة لمنطقة التجارة الحرة بين إقليم الشرق الأوسط والولايات المتحدة، وفى ظل علاقة اللاتكافؤ القائمة بين الاقتصاديات العربية والولايات المتحدة يظل الطرف الرابح الأكبر من هذه المبادرة هو الولايات المتحدة الأمريكية التى لا تهدف فقط إلى استيعاب المنطقة العربية بقدراتها الاقتصادية لتكون منطقة نفوذ أمريكية، ولكن تستهدف أيضًا طرد منافسيها لتكون المنطقة خالصة للولايات المتحدة الأمريكية.

وبتحول الفضاء العربى إلى منطقة نفوذ خالصة للولايات المتحدة لم يعد أمام العرب غير طريق واحد للإبقاء على الهوية القومية، وهو عدم الانصياع للإدارة الأمريكية ومخططاتها، وإدراك العرب أن لديهم من الإمكانات الذاتية ما يوفر لهم التحرك المستقل وبناء عالمهم الخاص بهم إذا أمكن توافر الإرادة السياسية الصلبة لذلك والأخذ بأسباب العلم والتقنية لعبور فجوة التنمية الشاملة، وهى الفجوة التى كان اتساعها سببًا فى الهزائم العربية المتكررة.

التربية والمقاومة

على مدى الخمسين عامًا الماضية وبعد قيام الثورات العربية، لم يحدث تغيير فى أعماق الإنسان العربى ونظرته إلى الكون والطبيعة والعالم، وأصبحنا نعيش ونحن نتكلم عن التطور والتقدم والتنوير والعولمة، وكل مفاهيم العصر فى ظل سراب خادع، يتصور المتحدثون بهذه المقولات الكبيرة أنهم يفعلون شيئًا مفيدًا للأمة، وفى الحقيقة أنهم يحولون كل أمور الثقافة إلى أيقونات، مكانها الحقيقى متاحف التاريخ قد تبهر العين، ولكنها غير مؤثرة بالمرة فى مسيرة الحياة العربية التى تظل جامدة على حالها لا تؤثر فيها حتى أعتى الكوارث، قد يصل الإنسان العربى إلى أعلى مراتب الخزى والانكسار، ومع ذلك يظل يعيش حياة روتينية لا تغيير فيها ولا تبديل، الشىء الوحيد الذى نراه اتساع طبقة البرجوازية على مستوى الوطن العربى كله، واضحة تمامًا فى دول الخليج بعد ارتفاع دخول النفط، وفى بقية الأقطار وخاصة مصر تتسع الطبقة البرجوازية العفنة لتضم المثقفين ومحترفى الفكر والكتابة، طبقة أبعد ما تكون عن نبض الشارع والجماهير - وفقدت دورها تمامًا فى قيادة الجماهير تجاه التغيير وتنمية الوعى بينهم، طبقة مضللة وخادعة، غزت ميدان الثقافة لتثبت فيها مفاهيم تخدم مصالحها الشخصية النفعية، وتبعيتها لنظام الحكم المتسلط والأجنبى النافذ إلى ضمير الطبقة العليا تحت شعار وخداع الأيقونات القديمة.

وفشل المشروع الإعلامى التربوى والتقنى العربى فى الإرتقاء عقليًا ونفسيًا واجتماعيًا وثقافيًا بالإنسان العربى - وهو المشروع الذى عول عليه الكثيرون فى تحرير الوطن العربى من ربق التخلف الذى يطبق على

أنفاسه، ويضيق عليه الخناق شيئًا فشيئًا حتى وصلنا إلى الهزيمة الكبرى.

وقد يرى التربويون أن التخلف السائد فى المجتمع العربى يرجع إلى التحيز «الجبرى - العطالى» ومقولته الأساسية التسليم بالأمر الواقع، والتسليم بالأمر الواقع يتراوح ما بين التسليم بـ «القدر الإلهى الغيبى» وبالتالى تبرير العطالة أمام هذا القدر - وبين التسليم بالواقع وقوانينه الثابتة، وعبر قدسية الأعراف والعادات والتقاليد والقيم وهو ما يبرر العطالة أمام هذا الواقع، وقد يكون فى قهر المرأة مثالاً من خلال التسليم بالقدر الإلهى المحتوم للمرأة «الرجال قوامون على النساء» من جهة. وعبر التسليم بالواقع وقوانينه وأعرافه وتقاليده وقيمه التى تشىء المرأة وتحتقرها وتبخسها فهى «ناقصة عقل ودين» وهى «عورة» كما أنها «ضلع أعوج».

وإذا سرنا على هذا المنوال فسنجد أسبابًا كثيرة مماثلة يذكرها التربويون وهم يناقشون مشكلة التخلف العربى.

والحقيقة أن ما يقوله التربويون عن التخلف هو كلام مكرر ليس به جديد. ولا يمت إلى الحقيقة بأى حال من الأحوال، فإذا قلنا كما يقولون - العلاقات الاجتماعية لنمط التخلف السائد فى المجتمع العربى المعاصر هى علاقات قهرية تسلطية وأبوية، وأن القهر والتسلط هو قهر الطبيعة وغوائلها، قهر المتسلط فى المجتمع الزراعى وقهر التقاليد العشائرية الجامدة التى تشل الفكر، وتمنع الموقف التقدمى لظواهر المجتمع وأنظمته، ثم القهر الذى تمارسه السلطة فى المدن على اختلاف وجوهه وأشكاله وتبريراته - نكون قد سرنا فى طريق مسدود، وفى نفق ضيق لن نرى النور فى آخره.

فاليوم لا نرى تسلطًا من الأسرة على الأبناء، بل انفلت العيار، وراح الشباب يعيثون فى الأرض فسادًا، ولو وجه طاقته لعمل شىء مفيد أو اكتساب معرفة لأصبح فى وضع أفضل، لقد فقدت الأسرة عنصر

المقاومة، فلا أحد يستطيع الآن كبح جماح جنوح الشباب وأصبحت الأسر، لا حول لها ولا قوة، فهى لا تستطيع مقاومة تأثير الإعلام على أبنائها، وتأثير الشارع والمجتمع والمدرسة، فأساليب التربية الحديثة تشير بعدم ضرب الأطفال فلم يعد الآباء يستخدمون هذا الأسلوب العنيف فى التربية، فى حين أن علماء النفس الآن يقولون إن قليلاً من الضرب يصلح الطفل - على كل حال.. تساهم الأوعية المختلفة فى تكوين عقلية الشباب الصاعد (الساقط) - فضلاً عن النفاق والخداع الذى تبثه فئات الصحفيين والمثقفين الجدد فى وسائل الإعلام وخاصة التلفزيون والصحافة - الأمر الغريب أن المسئولين عن تثقيف النشء هم الذين يلوثون أفكاره، والمدرسة فى ذلك مظلومة، والأسرة أيضًا قد تكون مظلومة - وطبقة البرجوازية الصغيرة فتحت المواخير والملاهى وأسباب التسلية الأخرى أمام الشباب، ومهربو المخدرات أتلفوا عقول الشباب بما يروجونه، والحاكم فى كل ذلك إدارة وشرطة لا يقوم بواجبه على الوجه الأكمل. ونحن نرى فى مجالس الشعب نواب الكيف، ونواب القروض، ثم الهاربين من التجنيد... إلخ.

هل من يروج لهذا الفساد ولد مقهورًا فراح فى ثورته على القهر يضرب عرض الحائط بكل قوانين وقيم المجتمع. أم أن هناك تراثًا قديمًا تعمقت مفاهيمه ومادته وقيمه فى نفوس الناس. ولم يعد هناك مقاومة لاقتلاع الشر واتجاهات الانحراف من النفوس.

وتصعد سلم مراحل التعليم حتى تصل إلى التعليم الجامعى، نجد هنا أسوأ ما فى الأمر، جاء أساتذة الجامعة إلى داخل الأسوار بأخلاقيات وقيم مجتمع خارج الجامعة، ولم يبنوا مجتمعًا جديدًا داخل الأسوار، وظنوا أن وظيفتهم الأولى هى تلقين الطلبة بعض المعارف كما هو الحال فى المرحلة قبل الجامعية، وأنهم غير مسئولين عن بث القيم والأخلاق والفضيلة بين الطلاب كما هم أنفسهم تناسوا الأخلاق والفضيلة وهم

يمارسون أبحاثهم العلمية ومسئوليتهم التعليمية، وأطلقوا إلى سوق العمالة قومًا لا يعرفون عن الفضيلة شيئًا، ولا يعرفون أيضًا روح البحث العلمى والإطلاع، وراح هؤلاء الخريجون يعيثون فى الأرض فسادًا.

وأمام فريق من العلمانيين يدعون إلى إعلاء كلمة العقل ولا سلطة فوق سلطة العقل، تغاضوا عن الدعوة الأخلاقية ونشر الفضيلة والقيم، بل هم أنفسهم فاسدون منافقون كذابون، مخادعون كيف إذا تربى جيلاً جديدًا من الشباب يستطيع أن يقاوم الفساد الضارب فى أعماق المجتمع، ويقاوم الانغماس فى أنماط الانحراف السائدة؟ كيف لهذا الجيل أن يقاوم - والنغمة السائدة أن من يقاوم عبيط وأهبل متخلف - والتمدن فى التحرر العبثى، واللامسئولية، وضرب أنفاس الأرجيلة، وتعاطى المخدرات، واغتصاب النساء هذه هى قيم الأجيال الصاعدة، ولا أحد من التويريين يعترض ويقدم برنامجًا لمقاومة أوجه الانحراف، بل يعتبرونها تحررًا وتقدمًا وتنويرًا - وزوروا مفاهيم الوطنية والتقدم والحرية والديمقراطية!

وأوجه الفساد فى المجتمع سائدة منذ قديم، وفى بداية القرن الماضى ومع وجود قوى الاستعمار، انتشرت الخمارات ودور اللهو الرخيص، وسمح بمزاولة البغاء وانتشرت موجة من الأغانى الخليعة. وفى وسط كل هذا الفساد ظهر حسن البنا، ليعلم الشباب ويرجعهم إلى الفضيلة والتمسك بالقيم والأخلاق. وامتثلت جموع غفيرة من الشباب للدعوة الجديدة - تكونت منهم كتائب المقاومة ضد الإنجليز فى القناة، وضد اليهود فى فلسطين. بل أن معظم قيادات ثورة يوليو كانوا من المنتسبين أو المناصرين للإخوان.

لم تُمهل السلطات الفاسدة حسن البنا ليكمل رسالة الإصلاح والمقاومة لقوى الفساد الطاغية.

بل لم يظهر بعده من هو فى مثل ثقافته وقوته الفكرية وللأسف كما

يقول الدكتور رضوان السيد: «إننا متخلفون عن العالم كله من حيث أن الثقافة والسياسة فى مجالنا العربى تسير من وراء إلى وراء. ففى المجال الثقافى محمد عبده، أقل ثقافة وانفتاحًا من جمال الدين الأفغانى أستاذه، ومحمد رشيد رضا أقل انفتاحًا من أستاذه محمد عبده، وحسن البنا أقل ثقافة وانفتاحًا من رائده رشيد رضا، سيد قطب أقل انفتاحًا من رائده حسن البنا، وعمر عبدالرحمن أقل ثقافة وانفتاحًا من سيد قطب».

لم يأت لنا بعد حسن البنا من هو بقوته الفكرية والنضالية، ولم يأت لنا بعد جمال عبدالناصر من هو بقوته الوطنية والنضالية، ويقولون إن مصر ولادة، نعم مصر يظهر فيها الكثيرون من الرواد، ولكن لم يظهر فيها الكثيرون من الثوريين الراديكاليين، وعبدالناصر كثورى علمنا كيف نقاوم قوى الهيمنة والتسلط، وعلمنا أن نأخذ حقوقنا من المغتصبين، وعلمنا القومية العربية، وهو مبدأ عصرى يساير منطق التكتلات الكبيرة فى عصر العولمة - ورغم أخطائه الكثيرة، علمنا الكثير، ولكن ما إن ذهب عبدالناصر حتى انفرط عقد الاشتراكيين والقوميين.. لماذا حدث هذا؟ هذا سؤال تربوى بالدرجة الأولى.

لقد تعلم الكثيرون من أبناء هذا الشعب من مدرسة حسن البنا ومدرسة جمال عبدالناصر ما لم يتعلموه من المدرسة الرسمية ووسائل الإعلام والتثقيف الرسمية.

ظهر حسن البنا وجمال عبدالناصر فى جو ثقافى فوقى يهتز فيه الإيمان بالإسلام وبالعروبة، مناخ ثقافى نافٍ للهوية وفاقد للروح الوطنية. وهناك كانت ثورة قادها سعد زغلول، تسملها بعد ذلك من تعاون مع السراى والإنجليز - واليوم يتعاون المثقفون مرة أخرى مع النظام الحاكم برغم استبداده ومفاسده، وأيضًا يروجون لثقافة أمريكا وفرضها مع ظهور روح الانبطاح والتسليم، يعارضون كل من يدعو

للمقاومة والصمود. يقولون إنه عصر أمريكا وينبغى أن نسلّم بكل ما تريده أمريكا. والمقاومة إرهاب ساذج لا طائل من وراءه. وعلينا أن نقبل أن تأتى أمريكا لتصلح الأوضاع عندنا وتفرض ديمقراطيتها.

وتظل بريطانيا والولايات المتحدة تمارسان دورهما القديم فى الشرق الأوسط، والمثقفون العرب يتعاونون مع الدولتين، وتأتى فرق المرتزقة العرب على دبابات الغزو لتولى الحكم فى العراق، وفريق آخر سورى يجهز نفسه فى الولايات المتحدة ليأتى هو الآخر إلى سوريا مع الدبابات الأمريكية، وفريق من مصر يستلم المعونات من أمريكا لخلخة الاستقرار فى مصر لصالح العدو المتربص، كل ذلك يحدث لأن ثقافة التنوير الجديد هى الغالبة، والإسلاميون والقوميون والشرفاء يقبعون فى قفص من حديد تحاصرهم السلطة من كل جهة، والأخلاق تنهار، والعمالة تتسع رقعتها، والشباب يتمزق، والشعب محبط لا إرادة له والمجتمع تتفسخ أوصاله، والاقتصاد يسوء، والجنيه يتدهور، والرشوة تزداد، والفساد ينتشر كالنار فى الهشيم.

فقدنا روح المقاومة، والتربية تعجز عن فعل أى شىء لإحيائها. وكما أوضحنا أن التربية لا تتم من خلال المدارس، فلم نذهب ونحن صغار للمقر الرئيسى لجماعة الإخوان المسلمين بحى الحلمية لأن المدرسة قالت لنا اذهبوا، ولم نهتف خلف أسوار الجامعة ونحن كبار «الله أكبر ولله الحمد» لأن الأساتذة قالوا لنا افعلوا.

لقد تربى جيل وهو يقرأ ويسمع ويرى، والآن الجيل لا يقرأ ولا يسمع ولا يرى، نعم إنه يسمع فقط أغانى الموجة الجديدة الهابطة، ويرى أفلامًا من خلال وسائل الإعلام وربما أيضًا من خلال الانترنت تثير الجنس وتدعو للفساد، كان من المفروض أن ينتقل الشباب إلى حالة ثقافية متقدمة ولكننا نستخدم كل وسائل التقدم لتكريس الانحراف.

كنا ونحن صغار نسمع القرآن الكريم على فترتين صباحية ومسائية،

وكان يسبق التلاوة حديث ديني يحثنا على التمسك بالأخلاق ويشرح لنا تعاليم الدين الحنيف. ومن خلال هذه الأحاديث تعلمنا الكثير وزادت مقاومتنا للانحراف والفساد، وكنا نشاهد على شاشات السينما أفلامًا تدعو إلى الخير والقيم والأخلاق ومقاومة الشر والانحراف، على الرغم من أن كمية هز البطن كانت فيها كثيرة، إلا أن الانطباع السائد كان مقاومة الفساد. وكنا نقرأ كتب إحسان عبدالقدوس ونجيب محفوظ والسباعي وعبدالحليم عبدالله ويحيى حقي، وكُتَّاب كثيرين عظام، تعملنا منهم الكثير، هكذا تعلمنا، وهكذا نشأنا وهكذا تثقفنا، وفي كل ذلك لم يكن للمدرسة الدور الأكبر في تكويننا.

تكلمنا عن سلطة الأسرة والمدرسة، وأوضحنا أن الأسرة والمدرسة لم يكن لهما الدور الأساسي في تربية النشء.

ويبدو أننا سنخوض في المحظور. لأننا سوف نقول هنا وبكل صراحة أن الأسرة قديمًا لم تكن تأخذ دورًا في التربية، ومازالت لا تأخذ هذا الدور حتى الآن بسبب تخلف المرأة المصرية.

ربما عانت المرأة من سلطة المجتمع التي قهرتها في العقود الأولى من القرن الماضي، ولكن بعد أن ظهرت الدعوى لتحرير المرأة والمطالبة بإعطاء المرأة حقوقها كشريك أساسي في المجتمع لم تعد المرأة تتعرض للقهر، وإن كانت ما تزال تعاني فذلك يرجع إليها أولا وأخيرًا، فالطريق أمامها مفتوح لتتعلم وتتثقف، وعدد النساء يفوق عدد الرجال في كثير من الأعمال، بل عدد الطالبات قد يفوق عدد الطلبة في بعض الكليات.

قدم المجتمع الكثير للمرأة وتظل عاجزة عن أن تلعب دورًا مؤثرًا وتأخذ مكانتها، ويرجع ذلك إلى قصور وعجز ارتضته لنفسها، لأنها لم تساير العصر، فهي لا تقرأ، وإذا قرأت لا تفهم، فلم تعد قادرة على أن تعطي شيئًا لأبنائها. وهي تحافظ عليهم بطريقة الدبّ التي أرادت أن تحمي صاحبها من ذبابة فقتلته، المرأة عنصر أساسي من عناصر

التخلف فى هذا المجتمع. ليس يعنى هذا أبدًا أن الرجل غير متخلف، ولكن المرأة أكثر تخلفًا بكثير، فهى لا تشارك فى الحياة العامة، لا نراها فى الأحزاب والنقابات، والجمعيات الأهلية. وقد يقول الكثيرون إن الأعباء الأسرية تتحملها المرأة بمفردها، والحقيقة أن المرأة الموسرة فى مصر التى يعاونها الخدم وغيرهم لا تشارك أيضًا، فالمصيبة الكبرى أنها لا تقرأ وهنا بيت القصيد - لا تستطيع تربية الأطفال بالطريقة المثلى وهى لم تقرأ عن طرق التربية الحديثة ولا تستطيع أن تشارك فى العمل العام لأنه ينقصها الخلفية الثقافية والوعى الذى يدفعها للمشاركة، وإن شاركت فهى سطحية ولحد كبير - قالت لنا إحداهن فى ندوة فلسفية إنها تعشق زكى نجيب محمود لدرجة أنها تأكل على أنغام وأفكار زكى نجيب محمود، وتدخل دورة المياه وزكى نجيب معها فى تفريغ فضلاتها، مبالغة طريفة ولكنها على أى حال تعبر بكل وضوح عن سطحية عامة تجسدت فى تفكير المرأة.

وإنه لمن العبث أن ننجر وراء مراكز وجماعات ممولة من الخارج، تروج لدعاوى تعديل الخطاب الثقافى، ومن أهم بنوده تحرير الحريم من استبداد الرجال وقسوتهم، وكأننا قد فرغنا من حل كل مشكلاتنا الجوهرية التى تؤثر وبشكل ضاغط على حركتنا نحو التقدم والتنمية.

نقول ذلك ونحن نعتقد كثيرًا فى أن المرأة تقاعست عن القيام بدورها فى ملء الفراغ فى دوائر الثقافة العربية العامة، تاركة الحمل كله على الرجال العاجزين بدورهم على مواجهة العابثين بالثقافة العربية.